

المحاضرة الخامسة

البلاغة والأسلوبية

إن كلمة (أسلوب) قديمة في اللغة العربية، وقد وردت في مصنفات العرب اللغوية والمعجمية، ومنها لسان العرب لابن منظور حيث يقول: «ويقال للسطر من النخيل: أسلوب. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. قال: والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب؛ يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب. والأسلوب الطريق: تأخذ فيه. والأسلوب، بالضم: الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه»¹، ويُعرّف الأسلوب في الاصطلاح الأدبي والنقدي بأنه النهج اللغوي الذي يشتمه الأديب لنفسه في خضم المادة اللغوية المترجمة، فهو نسق معيّن ونظام، ومن الممكن أن يقال إن الأسلوب مذهب، ولكل مذهب، تبين به طريقة صاحبه في التعبير، وتتميز شخصيته عن سواها.

أما الأسلوبية فيرجع الفضل في ظهورها إلى العالم اللغوي أبي اللسانيات الحديثة السويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913) Ferdinand De Saussure، غير أن الفضل الأكبر ناله تلميذه شارل بالي (1865-1947) Charles Bally، وهو باحث لساني كان مختصاً في السنسكريتية واليونانية، ولما استوعب المفاهيم التي جاء بها دي سوسير وتمثلها عكف على دراسة الأسلوب، فأرسي قواعد الأسلوبية المعاصرة ابتداءً من سنة 1902م.

إن الأسلوبية منهج يهدف إلى تحليل الخطاب الأدبي، والكشف عن أبرز معالمه ومميزاته الفنية والجمالية، كما أنها تسعى إلى تخلص النص من سياقاته الخارجية وشروطه الإبداعية، فهي تركز على عملية الإبداع والإفهام، ومن ثم تنتقل إلى أمر جوهري وهو التأثير في المتلقي، يقول ياكبسون في تعريف الأسلوبية: «إنها البحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً، وعن سائر الفنون الإنسانية ثانياً»، وهذا يحيل إلى ضرورة مقارنة النتاج الأدبي مع غيره، لتبيين ميزاته وخصائصه².

وتتحدد مقولات الأسلوبية في ثلاثة عناصر هي:

- **الاختيار:** إن لغة النص الأدبي هي لغة مميزة، وهذا التميز يبين لنا أن الكاتب أو الشاعر قد اختار من المعجم اللغوي مجموعة من الكلمات حتى يستطيع تكوين رسالته وإحداث الأثر المرجو منها، وبالتالي التواصل مع المتلقي والتأثير فيه، فلغة النص الإبداعي هي لغة مختارة بدقة وعناية، ولهذا أجمع الباحثون على أن الكتابة أو النظم قوامه اختيار المعجم الخاص لإحداث الأثر الفني.

¹ لسان العرب، مادة (سلب)، ج 01، ص 473.

² يُنظر: موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، إربد، ط 01، 2003م، ص 12.

- **التركيب:** إن تركيب النص الإبداعي خاصة حين ثورته على النمط النحوي المعتاد الذي يحترم قانون النحو، وتكوينه لتركيب جديد غير مألوف لدى المتلقي هو الذي يبعث الدهشة والانبثاق، فالتركيب أو التشكيل اللغوي هو المادة الحقيقية المشكلة لفن الأدب، ولذلك لا بد من بذل الجهد في التعرف على كيفية استخدام الأديب للغة.

- **الانزياح:** هو الخروج عن المألوف المعتاد في الكلام العادي بين الأفراد في المجتمع، والاتجاه نحو صيغة كلامية تبعث الإيحاء وتحث على التأويل، وبالتالي خلق التوتر والاستغراق في حالة التأثر ومحاولة الشرح، أو كما يسميه بعض الباحثين بـ:"مواطن الخروج على المستوى العام الذي عليه الاستعمال العادي للغة".

إن الانزياح ظاهرة أساسية محورية من ظواهر الأسلوبية، تقوم على الخروج عن المألوف والمعتاد، وتجاوز السائد والمتعارف عليه والعادي، وهو في الوقت نفسه إضافة جمالية يمارسها المبدع لنقل تجربته الشعورية للمتلقي والتأثير فيه؛ ولذلك لا يعد أي خروج عن المألوف وتجاوز للسائد وخرق للنظام انزياحا ما لم يحقق قيمة جمالية وتعبيرية، ومع أن مصطلح الانزياح مصطلح حديث إلا أن له جذورا تعود إلى البلاغة اليونانية، فقد كان أرسطو يميز بين اللغة المعروفة الشائعة وبين اللغة الغريبة غير المألوفة والتي تعد في نظر أرسطو هي اللغة الأدبية.

ولا تخلو البلاغة العربية القديمة من صور للانزياح اهتم بها البلاغيون، فبالرغم من أنهم لم يتواضعوا على هذا المصطلح إلا أنهم عرفوا الاستعارة ودرسوا التقديم والتأخير والمجاز، وكلها من أشكال الانزياح والخروج عن المألوف.

الفرق بين البلاغة والأسلوبية:

ويمكن تلخيص الفروق بين البلاغة والأسلوبية في العناصر التالية¹:

- البلاغة علم لساني قديم، والأسلوبية علم لساني حديث، وهذا يحيل إلى الاختلاف في المنهج.

- البلاغة علم معياري يبحث في الصواب والخطأ، بينما تُعدّ الأسلوبية علما وصفيا.

- تقرر البلاغة ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، بينما تقرر الأسلوبية تأثر نمط القول بالموقف.

- اتساع آفاق علم الأسلوب اتساعا كبيرا مقارنة بعلم البلاغة، فالأسلوبية تدرس الظواهر اللغوية جميعها، من أدنى مستوياتها وهو الصوت إلى أعلاها وهو المعنى.

¹ يُنظر: شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة مبارك العامة، مصر، ط02، 1992م، ص44 وما بعدها.

تطبيق:

- عرّف الأسلوبية، وإلى من يعود الفضل في تأسيسها؟
- ما هو المقصود بمصطلح "الانزياح"؟ اشرح بأمثلة.
- فيم تتمثل نقاط التقاطع بين البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة؟
- اذكر مقولات الأسلوبية مع الشرح.
- ما الفرق بين علم البلاغة وعلم الأسلوب؟